# قداسة الأمكنة من خلال كتاب "حياة الحيوان الكبرى" للدميري

أ/ فوزية براهيمي

أ.د/ رشيد شعلال

جامعة باجي مختار عنابة/الجزائر

البريد الالكتروني: brahimi_fouzia@hotmail.fr

**الملخص:**

لكل شعب من الشعوب معتقداته ومقدساته، وهي تشكل مكونا هاما من مكوناته الثقافية التي تقتضي البحث والدراسة، لأنها تكشف عن المبادئ الهامة والقضايا المحورية في حياته، لذلك ستسعى هذه الدراسة للكشف عن ماهية المقدس، والوقوف على ظاهرة تقديس الأماكن في ثقافتنا العربية الجاهلية والاسلامية، من خلال كتاب حياة الحيوان الكبرى للدّميري.

**الكلمات المفاتيح:** المقدس، الأساطير، الطقوس، قداسة الأمكنة، الدميري.

***Résumé :***

*Chaque peuple a ses propres croyances et caractère, et il constitue un élément important de ses composantes culturelles qui doivent être recherchées et étudiées, comme ils révèlent les principes importants et les questions cruciales dans sa vie, si cette étude va chercher à découvrir ce qui est sacré, et de se tenir au phénomène de la sanctification des lieux dans notre culture arabe-islamique.*

***Mots- Clés :*** *sacrés, mythologiques, Rituels, La sainteté des lieux, eldamiri.*

## أولا: تعريف المقدس:

أشارت الكثير من تعاريف المقدّس إلى صعوبة ضبطها، لارتباطها بما لا يمكن النطق به أو التعبير عنه ؛ فقد ذهب ر. ماكاريوس إلى أن البحث في المقدس هو في ذاته إبطال لمفعول قدسيته، بل إنه شكل من أشكال انتهاك المحرم une violation de l'interdit.[1] فالتفكير في المقدس يعني تحويله إلى موضوع عادي قابل للمناقشة والنقد والتقويم على نحوٍ من الموضوعيّة والتجاوز لمبدأ الثبات والمصادرة لحيثيات القراءة والتّلقّي.

ولذلك أمكن القول أنّ مبدأ الاحتراز والحذر في تعريف المقدّس ضربٌ من التعريف في حدّ ذاته. من حيث كان الاحتراز نفسه يشير إلى أنه يدل على كل ما هو مفارقٌ للطبيعة مخالفٌ للمألوف. وفي هذا إشارة إلى التناقض بين ما هو مقدس وما هو مدنس أو دنيوي؛ مما يسهّل تعريف هذه الكلمة باعتماد قياس الخلف–فكثيرا ما تعرف الأشياء من نقيضاتها–ذلك انّ مجال "الدنيوي هو مجال الشائع والمألوف، ومجال التصرفات التي لا توجب أي احتياط بل تبقى ضمن الهامش المتروك للإنسان كي يمارس فيه نشاطه بحرية، هامش ضيق أكثر الأحيان. وبالعكس يبدو عالم المقدس عالم الخطر أو الممنوع، إذ ليس يسع الفرد الاقتراب منه، من دون أن يستفز قوى لا سلطان له عليها، قوى يشعر أنه عاجز عن مقاومتها، لكن كل طموح لا يحظى بمؤازرتها محكوم عليه بالإخفاق، لأنها مصدر كل جبروت وكل نجاح وحظوة".[2]

لا غرو في أن تشكّل هذه الازدواجية القائمة بين المقدّس والمدنّس ضربا من التعامل الإجرائي الضروري الذي تقتضيه الظروف الخاصة المتمثلة في الإبهامية والغموض؛ مما استلزم طريقة خاصة في البحث تنعت بالتعريف أو البرهنة الخلفية: أي أن كل ما يثار حول المقدس يثار أيضا حول ما يناقضه أي عالم المدنس[3].

يُعَدُّ مرسيا إلياد من بين الباحثين الذين أسهموا بشكل فعال في فك الكثير من الغموض الدائر حولهذا المفهوم، من خلال اعتباره أن المقدس لا يتماثل مع الإلاهي، بل هو عبارة عن تجلٍّ له، سواء كان هذا التجلي في الزمان أو المكان أو الطبيعة أو العمران أو غيره. لذلك كانت العلاقة التي تسمح بالانتقال من المقدس إلى الدنيوي، ومن الدنيوي إلى المقدس ممكنة على الدوام، وتعد الطقوس بمثابة الجسر الذي يحقق هذا الانتقال، لأنها تجعل من المكان العادي مكانا مقدسا، وتخرجنا من الزمان الدنيوي إلى الزمان الأبدي المقدس.(4)

ذلك ما كان يعنيهروجيه كايوا،حينَ تحدّث عن خصوصيات المقدس الرئيسية فذكر أن القداسة صفة بإمكانها أن تحلّ بمختلف الأشياء والمظاهر، كأن تكون أماكن مثل: كنيسة، مزار، معبد، أو أدوات، أو أزمنة: مثل عيد الميلاد، عيد الفصح، يوم الأحد، أو على الكائنات مثل: كاهن، ملك، فلا يوجد شيء لا يمكن أن نسبغ عليه القداسة، فهي خاصية لا تملكها الأشياء في حد ذاتها بل إنها تضفى عليها، وتملؤها بالسحر والتأثير.

كما أن الشيء المكرس يتغير منذ لحظة تقديسه، وتتغير طريقة النظر إليه والتعامل معه، فيصبح محفوفًا بالمخاطر، وبنوعٍ من المحظورات؛ ولذلك ينبغي إحاطته وتعهده وصيانته بإخفائه وإبعاده عن مجال المدنّس.

ويتميز المقدّس أيضا بكونه منتشرا منْفلتاً أو معْدٍ، ما يسهّل عملية انتقاله من كائن إلى آخر أومن جسد إلى آخر. وقوته غير متحكم فيها فقد تكون خطيرة، وهذا ما يوّلد مشاعر خاصةٍ تجاه المقدس، إنها مشاعر الاحترام والتقدير فالمصادرة التي يمتزج فيها الرعب مع الثقة، الأمر الذي يدفع بالإنسان إلى إرجاع ما يصيبه من كوارث إلى عمل قام به أو تجاوُزٍ لأحد المحظورات أو ما شابه ذلك. كما أنه إذا رغب في تحقيق

شيء فإنه يؤدي الطقوس ويقدم القرابين مع قدر كبير من اليقين بأن المطلوب سيتحقق وأن الآلهة سوف تستجيب.

إن المقدس يقوم دائما على الطرف النقيض للمدنس أو الدنيوي ففي حين يتجلى لنا هذا الدنيوي على أنه عادي أو محتقر، نجد أن المقدس "يتمتع بقدرة جذب سحرية. قمة الإغراء هو، وأقصى درجات الخطر، مرغوب يستحث الراغب على الجرأة والإقدام، ومرهوب يهيب بمن يحاذيه إلى الروية والحذر"(5)

ومع أنّ الإنسان ما يفتأ في حالٍ من الاحتراز والحذر من جهة، وفي أخرى من المصادرة والحيرة إلاّ أنّه يمارس نوعاً من النشاط العقلي الذي يفسّر من خلاله المقدّس وما يلحقُ به تفسيرا إيجابيّا، يتيح الفرصة إلى قيام نوعٍ من التفكير على نحوٍ من الأسطرة والتخييل؛ ممّا يحقّق لدى المتلقّي نوعاً من الخوارق والعجائبية.

أما عن وظيفة الطقوس والمحظورات –على مذهب روجيهكايوا– فهي عملية تنظيم بين ما هو مقدس، وما هو دنيوي، حيث إن الدنيوي يحتاج إلى المقدس دائما ويرغب في الاستحواذ عليه. كما أن المقدس قابل للتفشي والانتشار، مما يهدد بالتدمير والخطر. من هنا كانت ضرورة تنظيم العلاقات بينهما وهو ما تضطلع بتأديته الطقوس باعتبارها شكلاً من أشكال التّجلّي على نوعين: نوع إيجابي يوجه ويحول طبيعة كل من المقدس والدنيوي بحسب حاجات المجتمع ونوع سلبي مهمته ابقاء كل واحد منهما بعيدا عن الآخر خشية أن يحدث بينهما احتكاك غير مناسب.(6)

فالمقدس عنده، إذن، يرتبط بمقولة الحساسية Catégorie De La Sensibilité التي تعدّ مكونا أساسيا لما هو ديني، ولذلك ينتاب المؤمن الاحساس بالاحترام حيال آلهته "إنه الفكرة الأم التي يتمحور حولها الدين، على حد قول هنري هوبير، فالأساطير والمعتقدات تحلل مضمونه على طريقتها، والطقوس تستخدم خصائصه،

والكهنـة يجسـدونه والمعابـد والأمـاكن المقدسـة والصـروح الدينيـة توطـده وتجـذره في الأرض، ومنه تنشأ الأخلاقيات الدينية، الدين هو تدبير المقدس"[7].

من خلال هذه المقولة لكايوا نصل إلى أن للمقدس علاقات تواصل مستمرة مع الأديان والأساطير ورجال الدين والكهان في المعابد. ومع الطقوس والأخلاقيات الدينية في الممارسات الحياتية. فالدين هو التصور العام لعالم المقدسات والمدنسات والذي يبقى مجرد نظريات مجملة تحتاج إلى التفصيل والشرح والتمثيل الذي لا يتحقق إلا من خلال الأساطير التي تفصّل في هذا المقدس عن طريق حكايات ومواضيع وأحداث بعينها، ليحل دور الطقوس التي تنزل هذه المقدسات من عالمها المجرد النظري على مستوى الدين، وعالمها التخييلي السردي على مستوى الأساطير إلى عالم المجسدات والوقائع. ففي تصوُّرِ دوركايم أنّ المعتقدات الدينية هي تلك التصورات التي تعبّر عن طبيعة الأمور المقدّسة، كما أن الطقوس هي"قواعد السلوك التي تعيّن للمرء كيف يجب أن يتصرف حيال المقدسات".[8]

ذلك يعني أن المقدس يرسم لنا نظام الأشياء والموجودات والقيم فيحددها ضمن نطاق القداسة أو الدناسة، ومن ثَمَّ يتحدد موقف الإنسان في الحياة، وتتضح مبادئه والقضايا المحورية في حياته، وما يجب أن يفعل وما لا يجب. كما يخلق المقدس أيضا نوعا من السياج الذي يحول بين هذه القضايا الهامة وما يستدعي دحضها أو نقضها، فالمقدس "هو في الحقيقة المقولة التي يبنى عليها السلوك الديني، تلك التي تمنحه خاصته النوعية وتفرض على المؤمن شعورا مميزا بالاحترام يحصن إيمانه ضد روح النقد، كما تجعله بمنأى عن الجدل العقيم، بوضعها إياه خارج نطاق العقل وما وراءه ".[9]

أي أنه لا يخلق عالما من المفاهيم والقيم والأفكاروالمعتقدات فحسب؛ بل يمنح هذا العالم نوعا من المضادات، أو اللقاحات التي تتصدى لأية فكرة متعارضة أو

مشككة أو ناقدة. وهذا تحديدا ما يجعل الانسان يعتقد اعتقادا راسخا لا يحتمل الشك بمبادئ دينه، وبمضامين أساطيره، وبرسوخ طقوسه وصحّتها. ما يجعل المقدس نوعا من القوة التدميرية لكل ما هو مخالف له ولمبادئه، وطاقة وقاية وصيانة عجيبة لمحتواه، ولكل ما يتماشى معه.

ومن هنا نكتشف أن القدرة الرهيبة التي لعبتها الأديان، والسيطرة العمياء التي فرضتها الأساطير، والصلابة العتيدة التي حققتها الطقوس، لم تكن لتحقق ما حققته لولا أهمية المقدس، ولولا تلك الصروح العتيدة التي بناها المقدس حول الدين والمعتقد والأساطير والطقوس.

## ثانيا: تقديس الأماكن من خلال كتاب "حياة الحيوان الكبرى":

يتناول مرسيا إلياد قضية الأماكن المقدسة في كتابه " المقدس والمدنس" فيرى بأن الإنسان المتدين يجد أن الأماكن غير متجانسة لأنه توجد مناطق مقدسة وهي تجسيد لما هو حقيقي، وكل ما عداها إنّما هي امتدادات محيطة، غير مكرّسة ومن دون بنية، لذلك نجد أن الإنسان يبحث دائما عن تجليات يظهر من خلالها المكان المقدس من وسط كوني محيط فيصبح مختلفا نوعيا.(10)

ويضرب لنا الكثير من الأمثلة على ذلك ومنها بناء يعقوب لبيت أيل –وقد سميت كذلك بعد أن كان اسمها لوز– وذلك على إثر حلم رأى فيه سلّما يلامس السماء وعليه كانت الملائكة تصعد وتهبط، وسمع الرّبّ وهو يقول في القمة أنا الرب إله ابراهيم أبيك وإله إسحاق، فعندما أفاق وأخذ الحجر الذي وضعه تحت رأسه، أقامه نصبا ثم سمى الموضع بيت أيل.(11)

وإذا لم يكن ثَمّةَ من علامات وخوارقَ فإن الإنسان يسعى إلى البحث عنها أو يَجْرِي استدعاؤُها، كأن يطبق نوعا من التعزيم بمعونة الحيوانات، لأنها تستطيع أن تظهر أي مكان مؤهل لإقامة المعبد، أو القرية كأن يُطارَدَ حيوانٌ كاسرٌ، وفي المكان

الذي يصطاد فيه يقام المعبد، أو يترك الحيوان المدجن حرا، ثم يبحث عنه ويضحى به في المكان ذاته حيث تُقام القرية أو المعبد "فبما أن الإنسان المتدين لا يستطيع العيش إلا في مناخ مشبع بالقداسة، فإنه يجب علينا انتظار عدد من التقنيات لتكريس المكان."[12]

ونجد أن عملية البحث عن الأماكن المقدسة تتجسد في ثقافتنا الإسلامية عبر الكثير من الأمثلة: كما حصل مع الرسول الكريم (ﷺ) في اختياره لموقع مسجده عند وصوله إلى قباء؛ فقد كانت الناقة دليله. وفي بناء سيدنا إبراهيم للكعبة فقد دلّهطائر الصّرد والسّكينة عليها. ومع حفر بئر زمزم من قبل عبد المطلب وما شاهده في رؤياه. ومما يمكن الوقوف عليه في دراستنا هذه من أماكن مقدسة ذكرها الدميري نجد: الكعبة أو البيت الحرام، البيت المعمور أو الضراح، الجبال والحجارة، بئر زمزم.

## 1- البيت الحرام أو الكعبة (سرّة العالم):

تُعَدّ الكعبة أو بيت الله الحرام من أقدس الأماكن في العقيدة الإسلامية؛ فهي قبلة المصلين والمكان الذي يتوجه إليه المسلم لأداء فريضة الحج، كما يعتقد بأنها مركز العالم وسرّته، وفي هذا تجسيد لرمزية المركز الموجودة في ثقافات كثيرة ومختلفة، حيث يعتقد أن المعابد والمدن المقدسة تقع جميعها في مركز العالم الذي يصفه ميرسيا إلياد بأنه منطقة المقدس بامتياز، منطقة الحقيقة المطلقة. وهو شبيه بالرموز الأخرى التي ترمز جميعا إلى الحقيقة المطلقة من مثل شجرة الحياة، شجرة الخلد، وينبوع الشباب.[13]

لقد ورد في الكثير من المصادر أن الكعبة هي الأصل الذي دحيت منه الأرض فقد ذكر الدميري أَنْ "خُلِقَ موضع البيت قبل خلْق الأرض بألفي عام، فكان زبدة بيضاء على الماء فدحيت الأرض من تحتها "[14] وفي روايات أخرى نجد أن الكعبة كانت"غثاء على الماء قبل أن يخلق الله تعالى السموات والأرض بأربعين سنة، ومنها

دحيت الأرض"وفي رواية مختلفة نجد:"خلق الله عز وجل هذا البيت قبل أن يخلق شيئا من الأرض... لما كان العرش على الماء قبل أن يخلق الله السماوات والأرض، بعث الله ريحا صفاقة، فصفقت الماء فأبرزت عن خشفة في موضع البيت كأنها قبة، فدحا الله تعالى عز وجل الأرضين من تحتها، فمادت ثم مادت، فأوتدها الله عز وجل بالجبال، وكان أول جبل وضع فيها أبو قبيس، فلذلك سميت مكة أم القرى" (15)

فتقديس الكعبة يرجع إلى ذلك الحدث البدئي الذي حصل قبل خلق السماوات والأرض بزمن طويل، ما يجعل هذا المكان هو البؤرة الأصلية التي تفتق عنها الكون لذلك يسمى بالمركز أو السرة، ولا يقتصر وجود هذه الفكرة على الكعبة بل نجدها حاضرة في الميثولوجيات المختلفة للشعوب.

فعند الهنود، نجد هذه الفكرة ممثلة في جبل "ميرو" حيث يتلألأ فوقه نجم القطب، وفي المعتقدات الإيرانية، يقع الجبل المقدس "هرابرزايتي" في منتصف الأرض، وهو متصل بالسماء، أما البوذيون في لاوس شمالي سيام فيجعلون جبل "زنّالو" هو مركز العالم. والمعتقدات نفسها نجدها في بلاد مابين النهرين ممثلة في "جبل البلاد"، كما كان لجبل "جريزيم" وسط فلسطين نفس المكانة للاعتقاد بأنه سرة العالم، وعند المسيحيين نجد " الجلجثة" التي تقع في وسط العالم لأنها قمة الجبل الكوني وهو المكان نفسه الذي خلق ودفن فيه آدم، وصلب عنده المسيح الذي سال دمه على جمجمة آدم. (16)

فالأشياء والأماكن المقدسة في مختلف الثقافات تتخذ دوما هذا البعد البدئي، فتكون هي البؤرة الأولى التي تشكل منها العالم، ولذلك يطلق عليها وصف "سرة العالم"، ويشير إلياد إلى هذا بأنه كثيرا "ما تعبر التقاليد الكوسمولوجية عن رمزية المركز بلغة قد يظن أنها مستعارة من علم الأجنة " القدوس خلق العالم كما يخلق الجنين، وكما أن الجنين يكبر ابتداء من السرة كذلك بدأ الله الخلق ابتداء من السرة ومنها

انتشر في جميع الاتجاهات"، وفي بلاد مابين النهرين نجد أن خلق الإنسان تم في سرة الأرض من " أوزو" (جسد) و(سار) أي صلة و"كي" أي أرض.[17]

أما عن قصة بناء الكعبة من قبل سيدنا إبراهيم عليه السلام فيورد الدميري أنه لما خرج من الشام، كانت السكينة معه والصرد، وقد كانا دليليه على مكانها فلما صار إلى موضعها وقفت السكينة في موضع البيت ونادت: ابْنِ يا إبراهيم على مقدار ظلي.[18] وكان ذلك بعد أن ولد له إسماعيل وقد بعث له السكينة لتدلّه وهي ريح خجوج لها رأسان شبه الحية، وقيل الخجوج الريح الشديدة الهفافة أو السريعة البراقة لها رأس كرأس الهرة وذنب كذنبها، ولها جناحان من زبرجد، وعينان لهما شعاع. وفي رواية أخرى تنسب لعلي ﷺ أنها ريح خجوج هفافة لها رأسان ووجه كوجه الانسان.[19] لقد وقع الحديث عن الريح في كتاب الدميري في أكثر من موضع فهي مُسخّرة لسيّدنا سليمان كما سخرت لذي القرنين، بل إن الخالق سبحانه سخرها لنبيه مُحَمَّد (ﷺ)، عندما بعث بصحابته إلى أصحاب الكهف ليبشرهم. ولا يخفى ما في هذه الروايات من خيال، يدل على أن الدميري يورد في كتابه الكثير من الأخبار التي تجمع بين الواقعي والأسطوري. ويعكس بأخباره هذه ذلك النموذج من التفكير الذي كان سائدا إلى عهده، والذي يمثّل سعي الإنسان الحثيث إلى تسجيل انطباعاته إزاء الظواهر الكونية، وحاجته الماسة إلى تأويلها باعتبار ذلك استجابة طبيعية لتساؤلاته وتطلّعاته؛ ممّا يؤدّي بالضرورة إلى أسطرة الموجودات والأحداث.

ولعلّ ما يؤكّد أسطورية هذه الأخبار ما ينتابها من اختلاف وتعدّد في الروايات ففي سياق أخبار بناء الكعبة نجد أنه بعد أن تبع إبراهيم السكينة أتيا مكة وتطوقت على موضع البيت كتطوق الحية كما ورد عن علي والحسين. وفي رواية أخرى لابن عباس أوردها الدميري دائما أن الله سبحانه وتعالى بعث بسحابة على قدر الكعبة فجعلت تسير وإبراهيم عليه السلام يمشي في ظلها إلى أن وافت به مكة، ووقفت عند

البيت المعظم فنودي منها إبراهيم عليه السلام أن: ابْنَ على ظلّها ولا تزدْ ولا تنقصْ. أما في رواية ثالثة، أن الله أرسل جبريل عليه السلام ليدله على موضع البيت وفي رواية أخرى أن الصرد هو من دلّه.[20] فمن خلال هذا التضارب في الروايات والاختلاف في التفسيرات يتجلى لنا نشاط الفعل الأسطوري الذي يقترن عادة بالمقدسات فينشأ حولها مادة تخييلية ترسخ ذلك المقدس وتنقله عبر الأجيال. هذا المقدس الذي يتجلى في مختلف هذه الروايات سواء أكان ريحا مسخّرة، أو صوتا مجهولا ينادى به إبراهيم عليه السلام، أو كان الملك جبريل الذي يدل على المكان المبارك.

ومن أخبار الكعبة دائما نجد ما قيل من أنها بنيت من حجارة خمسة جبال: طور سينا وطور زيتا ولبنان، وهي جبال بالشام، والجودي وهو جبل بالجزيرة كما بنيت القواعد من حراء وهو جبل بمكة. وعندما انتهى سيدنا إبراهيم إلى موضع الحجر الأسود قال لابنه الذي شاركه البناء، ايتني بحجر حسن يكون للناس علما، فأتاه بحجر فقال ايتني بأحسن من هذا، وعندما مضى صاح جبل أبو قبيس: يا إبراهيم، إن لك عندي وديعة فخذها، فأخذ الحجر الأسود ووضعه مكانه.

إن ما أخبر به الدميري عن قصة البناء وطريقة الاهتداء إلى المكان، ثم مشاركة عدد من الجبال بحجارتها لدليل على مدى قداسة هذا المكان،ليتوج هذا بقصة الحجر الأسود الذي خبأه جبل أبي قبيس وديعة لسيدنا إبراهيم، أي أن الريح والطير ممثلة في الصرد، وكذا الجبال بحجارتها جميعها تشترك في التدليل على هذا المكان وحمايته. ولا غرابة في ذلك كما سبقت الاشارة إليه؛ لأن الفكر الانساني من طبعه أن يشرك الطبيعة بمختلف ظواهرها من جبال وحجارة أو رياح أو أمطار وصواعق أو حيوان جميعا في إظهار المكان المقدس.

كما أن تعظيم هذا المكان لا يقتصر على البشر وحدهم، بل إن الملائكة التي توكّل بأمر من أمور الأرض تستأذن ربها وتذهب لتطوف به، حتى أن جبريل عليه

السلام في مرة من المرات "وقف على رسول الله وعليه عصابة حمراء قد علاها الغبار، فقال له رسول الله ﷺ "ما هذا الغبار الذي أرى على عصابتك أيها الروح الأمين"؟ قال: إني زرت البيت، فازدحمت الملائكة على الركن، فهذا الغبار الذي ترى مما تثير بأجنحتها"[21].

لو تتبعنا قصة البيت الحرام لوجدنا أن بدايتها أسبق عهدا من عصر سيدنا إبراهيم؛ لأنها كانت على عهد سيدنا آدم عليه السلام، فهو أول من حج وطاف بالبيت. ويروى أنه بعد نزوله عليه السلام إلى الأرض استوحش لعدم سماع الملائكة وذكرهم، فذكّره الله تعالى بخطيئته وطلب منه أن يبني بيتا ويطوف به على نحو ما رأى الملائكة تفعل عند طوافها بالعرش، فبنى آدم البيت حتى بعث الله الطوفان فدرس موضعه إلى أن أقامه إبراهيم عليه السلام.[22]

وفي رواية أخرى مختلفة نجد أن البيت الحرام ما هو إلا خيمة من خيام الجنة التي نزّلها الله سبحانه وتعالى على آدم بعد نزوله وندمه الشديد على ما بدر منه. ولأنها من الجنة فقد حرم النظر إليها على كل البشر حتى حواء نفسها، وقد كانت الملائكة تتكفل بحمايتها فلم يرها من البشر أحد غير آدم عليه السلام إلى أن رفعت بعد موته وبناها الناس من بعده.وكانت في صورتها الأولى عبارة عن خيمة من خيام الجنة "وتلك الخيمة من ياقوتة حمراء من يواقيت الجنة، فيها ثلاثة قناديل من ذهب من تبر الجنة، فيها نور يلتهب من نور الجنة، ونزل معها الركن وهو يومئذ ياقوتة بيضاء من ربض الجنة، وكان كرسيا لآدم عليه السلام يجلس عليه، فلما صار آدم ﷺ بمكة حرسه الله وحرس له تلك الخيمة بالملائكة، كانوا يحرسونها ويذودون عنها ساكن الأرض، وسكانها يومئذ الجن والشياطين"[23]

هذه الرواية تنفرد من حيث إنها تذكر أن البيت الحرام عبارة عن خيمة من ياقوتة نزلت من الجنة أي أنه تكريس لما هو سماوي، أوعالم ما فوق الأرض. وقد

اختص برؤيتها آدم وحده. كما أنها تفصل في بداية وجود الحرم الذي تحدد بوقوف الملائكة صفّا من أجل حماية الكعبة، كما تذكر خبر الركن الذي كان في مبدأه سماويا عبارة عن ياقوتة بيضاء من الجنة وقد كان كرسيا لآدم، كما لا تنسى هذه الرواية تحريم رؤية البيت الحرام على حواء إلى أن قبضت. ولا يخفى ما في هذه الأخبار من تأثير ما يعرف بالإسرائيليات خاصة من خلال موقف النصارى واليهود من المرأة وما يعتقد من أنها سبب طرد آدم من الجنة، لذلك حمّلوها وحدها وزر هذا الحدث.

كما تذكر الكتب أن البيت الحرام بقي مقدسا حتى بعد أن درس على إثر الطوفان،كانت الناس تعرف موضعه، ولم تزل تقدسه وتدعو عنده حتى من قبل أن يقيمه إبراهيم عليه السلام. وقد كان موضعه "أكمة حمراء مدرة لا تعلوها السيول. غير أن الناس يعلمون أن موضع البيت فيما هنالك ولا يثبت موضعه. وكان يأتيه المظلوم والمتعوذ من أقطار الأرض، ويدعو عنده المكروب، فقلّ من دعا هنالك إلا استجيب له"[(24)].

إنّ قداسة البيت الحرام إذن، ترتبط بجملة من الأحداث البدئية التي حصل بعضها في السماء، قبل خلق آدم عليه السلام عند خلق البيت المعمور الذي تطوف به الملائكة. وبعضها الآخر على الأرض، بعد هبوط آدم وبنائه للبيت أول مرة، ثم بنائه في زمن ابراهيم عليه السلام بعد أن درس بعد الطوفان. ولا يتوانى الدميري عن إظهار كل ذلك مثله في هذا مثل كل معتقد، ومقدس، يجلّ تلك المقدسات ويعمل على استعراضها بكل إيمان، ولا يعمل على فحصها أو نقدها.وهذا لا يتماشى تماما معجهده العلمي الذي يقتضي الموضوعية والتمحيص، أو على الأقل التعليق على بعض ما يلتزم بإيراده من روايات.

## 2- البيت المعمور:

تعتبر الكعبة الشريفة أقدس مكان في العقيدة الإسلامية على وجه الأرض؛ لمكانتها من هذا الكون، ولعلاقتها ببيت آخر مقابل لها في السماء تحج إليه الملائكة، يعرف بالبيت المعمور، ومما أورده الدميري في هذا الشأن أنّ الله تعالى خلق موضع البيت قبل خلق الأرض بألفي عام، فكان زبدة بيضاء على الماء فدحيت الأرض من تحتها، فلما أهبط الله تعالى آدم إلى الأرض استوحش فشكى إلى الله تعالى، فأنزل الله تعالى له البيت المعمور؛ وهو ياقوتة من يواقيت الجنة، له بابان من زبرجد أخضر: باب شرقي وباب غربي. فوضع على موضع البيت وقال: يا آدم إني أهبطت إليك بيتا تطوف به كما يطاف حول عرشي وتصلي عنده كما يصلَّى عند عرشي، وأنزل الحجر الأسود، وكان بياضه أشد من اللبن فأسود من لمس الحيض في الجاهلية.

ويضيف الدميري أن البيت كان على ما ذكر إلى أيام الطوفان حيث رفعه الله تعالى إلى السماء الرابعة وبعث جبريل عليه السلام فخبأ الحجر الأسود في جبل أبي قبيس وهو جبل في مكة صيانة له من الغرق.[25] أي أن البيت الحرام بحسب هذه الرواية هو النسخة الأصلية لهذا البيت المقدس المنزلة من السماء والتي كانت تطوف بها الملائكة، وكان على عهد آدم عليه السلام أن نزلت إلى الأرض ليطوف بها هو ومن يأتي من بعده. وقد رفعه الله سبحانه حفظا له من الطوفان، ولم يبق منه غير الحجر الأسود الذي حفظ على الأرض من قبل جبريل عليه السلام الذي خبأه في جبل قبيس قرب مكة المكرمة .

أما عن تسميته بالبيت المعمور فنجد الكثير من الروايات التي تذكر أنه يحج إليه في اليوم سبعون ألف ملك ولا يعودون لأن الدور لا يأتيهم بعدها أبدا. ولذلك سمي بالبيت المعمور لأنه معمور بالملائكة أبدا. ومن أسمائه أيضا الضراح ففي رواية سأل ابن الكواء عليا عليه السلام: "ما البيت المعمور؟ قال: هو الضراح، وهو حذاء

هذا البيت، وهو في السماء السادسة، يدخله كل يوم سبعون ألف ملك لا يعودون فيه أبدا"[26]

إن اللافت للانتباه أن مختلف الثقافات عنيت بتقديس الأماكن وأن الأديان على تنوعها سماوية أو وضعية كانت تركز على فكرة الأماكن المقدسة، والتي غالبا ما تكون تكرارا لنموذج سماوي بحسب الخيال الأسطوري لكل ثقافة وما يبدعه من تفاصيل حول عالم الواقع وما فوق الواقع. ومن هذه الأمثلة يسوق لنا ميرسيا إلياد قصة قدسية مدينة أورشليم التي كانت تقابلها أورشليم سماوية قد خلقها الله من قبل، حتى أن الخالق اختطف حزقيال في رؤيا له، وحمله إلى جبل شاهق ليريه المدينة السماوية. كما نعثر على وصف لها في رؤيا يوحنا متمثل في: " وأنا يوحنا رأيت المدينة المقدسة أورشليم الجديدة نازلة من السماء من عند الله مهيأة كالعروس المزينة لرجلها"[27].

والفكرة نفسها نقف عليها في الهند حيث أن المدن الملكية تبنى على المثال الأسطوري للمدينة السماوية التي كان يسكنها الملك الكوني أو سيد الكون لذلك فقصر قلعة "شيكاري" في سيلان مبني على مثال مدينة " الكامندا" السماوية وهذا ما يقود إلى القول بأن العالم الذي يعيش فيه الانسان وحتى الذي شيده لا يكتسب شرعيته إلا من خلال محاكاته، أو تطابقه مع النموذج فوق الأرضي الذي جاء العالم على مثاله ، وفكرة النموذج الأصلي هذه، لا تتعلق بالأبنية والمعابد فحسب، بل تمتد إلى الأقاليم التي يسكنها، بما فيها من حقول وأنهار وهذا ما نجده عند السومريين الذين تمثلوا الفردوس في صورة مدينة بابل، حيث يوضح مخططها أنها في وسط إقليم دائري واسع يحيط به نهر عامر.[28]

هذه الدلالات نقف عليها واضحة في الفكر العربي الإسلامي الذي تشرب جملة من الثقافات والمصادر المتنوعة، التي لابد أنها ستؤثر فيه بشكل أو بآخر. غير أن

مواقف الدارسين تجاهها هي التي اختلفت عبر الزمن، حيث نجد أن المعتزلة مثلا، ومنهم الجاحظ، وغيره ممن كان يُعْمِلُ العقلَ، قد ناقش تلك المرويات والقصص الكثيرة التي كانت تتردد في تراثنا العربي القديم دونما تمحيص أو تدقيق. في حين اكتفى البعض بالجمع والرواية، لنعود ونشهد مع عصر الدميري هذا التراجع في التحليل والنقد مما أسهم في نقل الكثير من الرواسب والمعتقدات الأسطورية في كتابه.

### 3- تقديس الجبال والحجارة:

لقد قدّس الإنسان عبر الأزمان مختلف مظاهر الطبيعة، وأضفى عليها صفات إحيائية، أو جعلها محلاّ تحل فيه الآلهة. وكذلك الشأن بالنسبة للعربي الجاهلي فقد قدس الجبال والحجارة وما أشبههما من بيوت أو معابد، لأنه اتخذها رموزا فهي "أشياء منظورة يتجسد فيها اللامنظور والمحتجب كما أنها وسيط بين الانسان والمقدس"(29) ويمكن الإشارة هنا إلى الجبل الذي نزل عليه آدم عليه السلام، وهو جبل سرنديب، فهو همزة وصل بين السماء والأرض وهو المكان الذي يتميز بنباتات خاصة من مثل الطيب، لأنها هبطت من السماء مع آدم. وتفاصيل أسطورية كثيرة حف بها هذا الجبل من مثل أقدام آدم التي رسمت فيه، وأنه مليء بالأحجار الكريمة وغيره.

كذلك تجسدت قدسية الجبل في قصة صعود عبد المطلب إلى جبل أبي قبيس للاستسقاء في قصة حفره لبئر زمزم، أو صعوده إلى جبل حراء للدعاء في قصة قدوم أبرهة لهدم الكعبة. أو من خلال استواء سفينة نوح على الجودي بعد الطوفان.

يعتبر الجبل ومعه الحجارة رمزا للقساوة والصلابة، وبالتالي القدرة على مقاومة الزمن الذي من شأنه أن يفني كل حي،لتبقى هي صامدة ثابتة، هذا من جهة. ومن جهة أخرى يعتبر الجبل رمزا للمكان المرتفع، وكما هو معروف أن الارتفاع هو رمز السماء أو ما هو إلهي. ولذلك يعتبر الصعود إلى هذه الأماكن بمثابة الصعود إلى

مصاف الإلهي. ومن هنا كانت الرغبة في الصعود أو الطيران رغبة ملحّة عند كل البشر لأنها تخرجهم من نطاق الفاني المحسوس إلى نطاق الانعتاق والخلود.

وفي هذا المجال نجد أنجيلبير دوران يجد أن "الارتقاء يشكّل الرحلةَ بذاتها، الرحلة الخيالية الأكثر واقعية من أي رحلة أخرى، والتي يحلم بها الحنين المتولد عن العمودية الصرفة عن الرغبة بالهروب إلى مكان أبعد، أو أعلى من السماء"[30]. والإنسان أثناء رحلته هذه إلى السماء يتخلص من كل ما يثقل روحه من متاعب ومخاوف، فلا غرابة لذلك أن يستعمل بعض المعالجين النفسيين من مثل ديزوي في علاجهم لبعض حالات الانهيار العصبي التأمل الخيالي للرموز الارتقائية.[31]

إن الأمر لا يتوقف عند الجبل من حيث هو وجود عياني محيط بالإنسان؛ بل إن هذا الإنسان يتخذ من الطبيعة ملهمة يستوحي منها بعض أحلامه واستيهاماته. وهذا ما جعل البشر في مختلف الثقافات يتخذون بعض التلال الاصطناعية كبيوت أو كعبة أو قبور أو أهرامات، من أجل تكريسها لعبادة الإله أو تمجيد السماء، وقد يعبر عن ذلك من خلال اتخاذ كثيب أو مسلة أو حجر أو ما شابه ذلك. ولذلك نجد أن العرب اتخذت الكثير من البيوت وأقامت عددا من الأصنام في أماكن كثيرة من البلاد العربية من مثل ذي الخلصة وهو صنم يسمى بالكعبة اليمانية وقد كانت له مكانة جد كبيرة عند العرب تكاد تضاهي مكانة البيت الحرام أو ما يسمى بالكعبة الشامية.[32]

والأمر نفسه بالنسبة لرمزية الجبل المقدس أو حتى رمزية الأرض المقدسة حيث نجد في الميثولوجيا الإسلامية فكرة جبل قاف التي نجد أنها تعبر عن ذلك الجبل الأسطوري الذي يمثل نهاية الكون، والذي يساعد الأرض على الاستواء، وهو أصل كل الجبال. كما نجد روايات كثيرة تنسب صفات ما لأماكن أو لجبال معينة كما هي الحال بالنسبة لأرض سجستان التي أنزلت إليها الحية بعد أن أهبطها الله سبحانه؛

فلذلك هي أكثر الأماكن التي تسكنها الأفاعي. وهناك من يقول أنزلت بأصبهان كما يذكر عن كعب الأحبار، وأن آدم نزل بجبل سرنديب، وأن موضع أثر قدمه مغموسة في الحجر هناك، ويرى عليها في كل ليلة برق من غير سحاب. وهذا المكان يوجد به الياقوت الأحمر والماس والعود.(33)

أما الحجارة فلها حضورها في أساطير العرب ودياناتهم الوثنية التي مثلتها الأصنام بالدرجة الأولى، والواضح أن العربي لم يعبد الحجارة أو ما نحت منها من تماثيل لقيمتها في حد ذاتها؛ بل قدسها لأنها رمز لتجلٍّ إلهي أو قدسي؛ حيث إنها رمز للآلهة التي تتجسد فيها، والدليل على ذلك المرويات الكثيرة التي تحكي عن تكلم هذه الحجارة أو الأصنام ومخاطبتها للبشر من نحو ما يرويه الدميري عن قصة مالك بن نفيع مع صنمه.(34)

لقد قدست العرب الأصنام على اختلاف أشكالها ومادة صنعها؛ فمنها ما كان مربع الشكل كاللات، أو مستطيلا مثل سعد، أو مروة بيضاء منقوش عليها كهيئة التاج، أو كان من عقيق مثل هبل، وغيره مما جاء في الديانة الوثنية عند العرب(35).

### 4- ماء زمزم :

يحتل بئر زمزم مكانة هامة في ثقافتنا وتبدأ قصته مع ما وقع لسيدنا إبراهيم وأهله عندما أمر أن يسير الى مكة ونجْد. تفصيل ذلك في رواية عن ابن عباس تقول بأنه بعد ما حدث بين سارة زوج إبراهيم وأم إسماعيل، خرج نبي الله ابراهيم بهذه الأخيرة وابنها صغير يرضعها حتى قدم بهما مكة، ولم يكن معها غير شنة فيها ماء تشرب منه وتدر على ابنها، ولم يكن معها زاد. وعندما وصل إلى دوحة فوق زمزم وضعهما تحتها ثم عاد وتركهما هناك. وبعدما نفذ منها الماء والطعام لم تجد مهربا غير أن تغيب عن ابنها إلى أن يهلك فلا تراه. فذهبت إلى الصفا ثم وجدت المروى

فمشت بينهما تعلل نفسهاإلى أن ظهر لها جبريل فتبعته حتى ضرب برجله مكان البئر فظهر الماء.(36)

وقد حُفِرَ بئر زمزم على عهد قريش حيث نعثر على روايات كثيرة تروي عن تلك الرؤيا التي راودت عبد المطلب عندما جاءه أمر الله بالحفر، فكانت الرؤيا بمثابة الدليل على مكان البئر. والقصة طويلة تحكي عن منازعة قريش لهذا الرجل لأنه عزم على الحفر في مكان مقدس من أماكنها التي كانت تنحر عندها.

ومما ذكر عن ماء زمزم أن المياه العذبة سترفع في يوم ما قبل القيامة وما يبقى منها إلا زمزم؛ وفي ذلك يورد الأزرقي "إن الله يرفع المياه العذبة قبل يوم القيامة غير زمزم، وتغور المياه غير زمزم، وتلقي الأرض ما في بطنها من ذهب وفضة، ويجيء الرجل بالجراب فيه الذهب والفضة فيقول: من يقبل هذا ؟ فيقول: لو أتيتني به أمس قبلته.(37) وفي هذا دليل على بركة هذا الماء حتى أنه باق لا يغور حتى لو غارت مياه الأرض جميعا. كما يمكن الإشارة إلى منافعه الصحية الكثيرة التي يقطع الناس المسافات الطويلة من أجل الاستفادة منها.

## خاتمة:

يمثّل كتاب "حياة الحيوان الكبرى"للدّميري مدوّنةً ثقافيةً وتصوّراً أنثروبولوجيّا للمجتمع العربي في جاهليّته وإسلامه؛ ويجمع إلى ذلك بعداً أسطوريّا يتأسّسُ على الخيال وعلى التشكيل العجائبي فتتحقّق هذه المدوّنة – في الواقع التواصلي– جملة من النّصوص الأنثرو أدبية لطبيعتها السّردية حينًا والوصفية حينا آخر. وهو ما يجعلنا إزاء جنس خطابيّ يتشكّل على نحوٍ خاصّ،يجمع بين السّيري والتاريخي والعقدي والاجتماعي والخرافي والأسطوري والسّردي والوصفي. وهو ( الخطاب ) إذْ يتجلّى على هذا النحو من الكثافة فإنّه يمثّل نموذجا ( Paradigme ) للخطاب

الثّقافي العربي القائم على التّراكم المعرفي الجامع بين المركز والهامش( الرّسمي والثّانوي ) على سبيل الرّواية والنّقل والتّدوين، يتحقّق النّصّ فيها صورة صادقة لدينامية الإنسان ولممارساته الحياتية.

وحيث إنّ المكان تحقّقٌ للوجود الإنساني فقد فعّلة الإنسان، حتّى تجلّتِ الأَمْكَنَةُ أضرُبًا من الممارسات اعتقاداً وسَعْيًا. وخُصَّت الأمكِنَةُ بممارسات وطقوس توحي بمكانتها وتفرّدها عن الأماكن العادية، شأن العرب فيها شأن الكثير من الشعوب والأمم التي تمارس فعْل التقديس في حياتها، لأنها تعتقد أن الطبيعة والحياة يخضعان لقوى تفوق قوة البشر، تقتضي استرضاءها عند الشّدّة والخوف والرّغبة في تحقيق المآرب.

إلى ذلك كانت قدسية الأماكن مقترنةً بأحداث بدئية وقعت مع بداية الخلق، أو مع حدث تاريخي خاص. بل إنها قد تقترن بنموذج سماوي انفصلت عنه أو حاكته. لذلك فالأماكن المقدسة تعبّر عن تجربة التسامي الذي يتم عبر تواصل الإنسان مع القوى العلوية. من نحو الحج والعمرة وشرب ماء زمزم وسواها.

تحيل الطّقوس التقديسية للأماكن على قيمة وجودية هامة بالنسبة لكل مؤمن أو متدين، فهي تمنح وجوده داخل المكان وممارساته دلالات غير عادية، فيكتسب ميزته الاعتباريةَ بصفته كائنا إنسانيا، يختلف عن غيره من الكائنات الحية ذات الحساسية الحيادية تجاه المكان. لذلك فإنّ كتشافه المكانَ المقدسَ وممارسةَ الطقوس التبجيلية، يعني اكتشاف الحقيقة المطلقة التي تنقله إلى عالم متسام له خصائصه التي تخرجه عن نطاق العادي والمدنّس.

## الهوامش:

1-نور الدين الزاهي، المقدس الاسلامي، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء المغرب،ط 1، 2005، ص 17.

2-روجيه كايوا الإنسان والمقدس، تر:سميرة ريشا، المنظمة العربية للترجمةومركز دراسات الوحدةالعربية، بيروت لبنان، ط 1، 2010 ص 43.

3-نور الدين زاهي، المقدس الإسلامي، ص 17.

4-المرجع نفسه، ص 22.

5-روجيه كايوا، الإنسان والمقدس، ص 39، 40.

6-المرجع نفسه، ص 41.

7-المرجع نفسه، ص 36.

8-إيفنز برتشارد،الإناسة المجتمعية وديانة البدائيين في نظريات الإناسيين، تر:حسن قبيسي، دار الحداثة للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت لبنان، ط1، 1986، ص 220

9-روجيهكايوا، الإنسان والمقدس، ص 36.

(10)ميرسياإلياد، المقدس والمدنس، تر:عبد الهادي عباس، دار دمشق للطباعة والنشروالتوزيع، دمشق، سورية، ط 1، 1988، ص 25.

11-المرجع نفسه، ص 28،29.

12-ميرسياإلياد، أسطورة العود الأبدي،تر: نهاد خياطة،دار طلاس للدراسات والترجمة والنشر، دمشق، سورية، ط 1، 1987. ص 40.

13-نفسه، ص40.

14-كمال الدين الدميري، دار ومكتبة الهلال، بيروت لبنان، د ط، د ت، ج 3، ص 109. وهو كمال الدين مُحَمَّد بن موسى بن عيسى بن علي (أبو البقاء) ولد سنة 742 هـ 1341 م في بلدة دميرة، توفي سنة 808 هـ 1405 م بالقاهرة، وقد عاش كما يقال فترة بمكة والمدينة.وهو أديب وعالم وفقيه، من فقهاء الشافعية كان قبلها يتكسب من مهنة الخياطة لكنه أقبل بعدها على طلب العلم، تتلمذ على التقي السبكي، ثم صارت له حلقة خاصة في الأزهر، كما أجاز له النويري بالفتوى والتدريس بطلب من السبكي. تعددت مؤلفاته في الحديث والفقه غير أن كتاب

حياة الحيوان الكبرى هو أشهرها، ويعد موسوعة شاملة في علم الحيوان، وهو من أهم ما كتب في هذا الموضوع باللغة العربية، جمع مادته من الكثير من الكتب والدواوين الشعرية.

يشتمل الكتاب على مادة قام بترتيبها على حروف الهجاء بدأها بالألف وانتهى عند الياء، وتتناول كل حيوان على حدة، هذه المادة فيها مادة لغوية ووصفية وبيولوجية، كما تتضمن أحكاما شرعية تتعلق بجواز أكل الحيوان أم لا وبمنتجاته، كما تتناول الجانب الطبي فيه أو في أحد أعضائه، وما قيل فيه من أمثال، وتفسير رؤية الحيوان في المنام. وفي حديثه عن هذه التفاصيل جمع الدميري في هذا الكتاب بين العلم والأدب والتاريخ والفقه، كما جمع بين الحقيقة والخيال، بين الواقع والأسطورة.

15-أبو الوليد مُحَمَّد بن عبد الله بن أحمد الأزرقي، أخبار مكة وما جاء فيها من الآثار،دراسة وتحقيق: عبد الملك بن عبد الله بن دهيش، مكتبة الأسدي، ط 1، 2003، ص 66،67،68.

16- ميرسيإلياد، أسطورة العود الأبدي، تر: نهاد خياطة،دار طلاس للدراسات والترجمة والنشر، دمشق، سورية، ط 1، 1987. ص 32، 33، 34.

17-المرجع نفسه، ص37، 38.

18- كمال الدين الدميري، حياة الحيوان الكبرى، ج 3 ص 109.

19- المرجع نفسه، ج3 ص 109

20- المرجع نفسه، ج 3 ص 110.

21- ينظر الأزرقي، أخبار مكة، ص 70، 71.

22- ينظر الأزرقي، أخبار مكة،ص 72...74.

23- الأزرقي، أخبار مكة، ص 74، 75. وينظر أيضا الدميري، حياة الحيوان الكبرى، ج 3 ص 109.

24- الأزرقي، أخبار مكة، ص 96.

25- الدميري ج 3 ص 109، 110.

26- الأزرقي، أخبار مكة، ص 92.

27- ميرسيا إلياد: أسطورة العود الأبدي ص 25.

28- ميرسيا إلياد: أسطورة العود الأبدي ص 24...28.

29- مُحَمَّدعجينة، أساطير العرب عن الجاهلية ودلالاتها، دار الفارابي، بيروت لبنان، ط 1، 1994، ج 1 ص 237.

30- جيلبير دوران الأنثروبولوجيا رموزها، أساطيرها أنساقها، تر: مصباح الصمد، مجد المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت لبنان، ط 3، 2006، ص 102

31- نفسه ص 102.

32- سميح دغيم أديان ومعتقدات العرب قبل الاسلام، دار الفكر اللبناني، بيروت لبنان، ط 1، 1995، ص 132، 133.

33- الدميري، حياة الحيوان الكبرى، ج 2 ص 170.

34- نفسه ج 4 ص 154، 155.

35- ينظر أبو المنذر هشام بن مُحَمَّد بن السائب الكلبي، الأصنام، تح: أحمد زكي باشا، دار الكتب المصرية، القاهرة، ط 3، 1995، من ص 14 إلى ص 27.

36- ينظر الأزرقي ص 547، 548.

37- المرجع نفسه ص 577.